من كناشة النوادر

بقلم الأستاذ عبد السلام هارون

(٤)

اول جمال يراها الأوربى :

حينما عبر يوسف بن تاشفين من بلاد المغرب إلى بلاد الأندلس فى سنة ٤٧٩ ورأى الأدفونش اجتماع العزائم على مناجزته، علم أنه عام نطاح، فاستنفر الفرنجة للخروج فخرجوا فى عدد لا يحصيه إلا الله تعالى، يقول ابن خلكان : ولم تزل الجموع تتألف وتتدارك إلى أن امتلات جزيرة الأندلس خيلا ورجلا من الفريقين، كل أناس قد التقوا على ملكهم، فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر فى آخرها، فأمر بعبور الجمال، فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قطّ جملا، ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها. وكان ليوسف بن تاشفين فى عبورها رأى مصيب، كان يحدق بها عسكره وكان يحضرها الحرب، فكانت خيل الفرنج تحجم عنها.

وكان ذلك فى وقعة الزلاقة التى هزم فيها الأدفونش فى دون الثلاثين من أصحابه، وغنم المسلمون من أسلحته وخيله وأثاثه ما ملأ بلادهم خيرا.

تامور الزكاة :

الزكاة إحدى الدعائم الخمس فى الإسلام، ولعلها أكثر هذه الدعائم خضوعا لرقابة الحكام والولاة، الذين وظفوا لها الدواوين والعمال لإحكام أدائها ومصارفها. والناظر فى كتابى : الأحكام السلطانية للماوردى المتوفى سنة ٤٥٠، والأحكام السلطانية لأبى يعلى الحنبلى المتوفى سنة ٤٥٨، يجد دستوراً حافلا لتنظيم الأموال ما كان منها زكاة، وما كان فيئاً أو جزية أو خراجا.

ويذكر ابن حجر فى تهذيب التهذيب أن مسلمة بن عبد الله الدمشقى — أحد الرواة عن عمر بن عبدالعزيز — كان صاحب « تامور الزكاة » فهذا استعمال قديم لكلمة « تامور» العربية الأصيلة التى فسرت بأنها دفتر

(*) ألقيت فى الجلسة الرابعة لمؤتمر المجمع فى دورته التاسعة والأربعين (الخميس ١١ من جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ الموافق ٢٤ من فبراير ١٩٨٣ م).

الزكاة ، فكأن مسلمة هذا كان المسجل لموارد الزكاة ومصارفها ؟

والتامور فى اللغة : غلاف القلب ، أو حبته ، أو دمه ، كما أن التامور وعاء الولد وماء الركيّة ، يقال : فى الركية تامور ؛ أى ماء.

رفيف العين :

أخذنا ـ نحن العرب ـ كما أخذ الناس جميعا ، أن نتفاءل ونتشاءم بما نجد وما نلقى : ولعل أقرب الأمور فيما يتفاءل به الناس هو الأعين إذا ما بدت خلجاتها .

ومن النصوص القديمة فى ذلك ما أنشده الآمدى فى المؤتلف والمختلف ٧٣ من قول جميل بن سيدان الأسدى ، وهو أحد الأعراب :

أيا جُمل هل دين مؤدى لحينه
فقد حل ذاكِ الدين ، واحتاج طالبه
فطالت به أحلامه إن قضيته
وظل بما منّيْتِ يلمع حاجبه

وقال الآمدى تعليقا على هذا : يلمع حاجبه : يختلج ، كأنه يبشره بوصالك. ويقول أيضا : وعندهم أن الحفن الفوقانى إذا اختلج فهو بشارة . وأنشد أبو عبيدة :

لم أدر إلا الظن ظن الغائب
أبِلكِ أم بالغيب رفّ حاجبي

أى اختلج . . . ويقال : إن الحفن الأسفل يؤذن بغم ، كما أن الأعلى يؤذن ببشارة .

أجرة الخان فى اليوم :

الخان كلمة فارسية معربة ، وهذا يعطى أن أسلافنا العرب إنما اتخذوا نظامها ـ من بعد ـ نقلا عن الفرس. فقد كانت خيام العرب وبيوتهم ونيرانهم بأعالى اليفاع ، وذبائحهم هى الخان لكل مسافر أو نزيل يقرونه تمام القرى ، ويتبعونه الكرامة حيث مال . . . . وبخروج العرب من جزيرتهم فى أسفارهم كان من الطبيعى أن تنشأ الخانات والمنازل فى طريق السفر وفى المدن أيضا .

ولعل خانات المنازل فى السفر كانت أقل نفقة ، فإن منها ما كانت تتكفل به الدولة الإسلامية فى مختلف عصورها ، ولا كذلك المدن ، ولسنا نعرف بالتفصيل ما كان يجرى فى خان الخليلى بالقاهرة المُعزّية ، على مر العصور وكر الدهور .

والذى نريد أن نصل إليه هو مستوى الأجور فى هذه الخانات. وقد عثرت. على نص نادر لولد ابن عائشة الذى توفى أبوه سنة ٢٢٧ . يقول الولد شاكيا لأبيه مالقى من ضيق فى بغداد ، وأن آماله الجسام فيما تناثرت بين يديه ، فكتب فى آخر كتابه إليه :

أنا فى الخان أؤدى كل يوم درهمين
نازل فيه على نف سى على سنة عين
وأرانى عن قليل لابساً خفى حنين

فأين هذى الشكوى مما نراه فى خاناتنا وفنادقنا ؟

أما لفظ « الخان» فيقول فيه الجواليقى ٢٣٩ : « والفندق بلغة أهل الشام : خان من هذه الخانات التى ينزلها الناس مما يكون فى الطرق والمدائن ».

أما صاحب القاموس فلم ينص على تعريبها، والذى فيه أن الخان هو الحانوت أو صاحبه. وأما صاحب اللسان فينص على التعريب ويقول : « الخان : الحانوت أو صاحب الحانوت ، فارسى معرب ، وقيل : الخان الذى للتجار » .

وأما أدى شير فيقول : الخان فارسى بحت ، وهو الحانوت ، وهو موجود فى جميع اللغات الشرقية الدارجة ، وهو يطلق على الدكان والمخدع والماخور . وأما الميدانى فى «السامى » ٤١٣ ، فيعرّفه بأنه « كاروان سراى» أى منزل القوافل على الطريق ومحط رحالهم :

عاشوراء :

يوم عاشوراء هو العاشر من المحرم عند العرب ، وتاريخه قديم جدا ، يرجع إلى ما قبل الإسلام . وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية ، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه ، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء ، فمن شاء صامه ومن شاء تركه .

وفى الصحيح أيضا من حديث ابن عباس أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قدم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشواء فقال ما هذا ؟ قالوا : هذا يومٌ صالح ، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى . قال : « فأنا أحق بموسى منكم »فصامه . وبذلك صار صوم يوم عاشوراء فرضا ثم أصبح فيما بعد سنة إسلامية.

ولسنا بحاجة إلى سرد مباهج هذا العيد عند مسلمى مصر ، والتزامهم إلى الآن بعمل مايسمونه العاشوراء من حبوب القمح، لا يكاد بيت من بيوتهم يخلو من صنعها أو ذوقها .

وحين نكرّ البصر إلى أصله عند اليهود، نجد أنه العاشر أيضا، لكن لا من المحرم، بل من شهورهم العبرية ، وهو شهر تشرى .

ويذكر البيرونى فى الآثار الباقية ص ٢٧٧ أن صوم هذا اليوم هو الصوم المفروض من بين سائر صيام اليهود ، ويسمى صوم الكبُّور ، يصومونه خمسا وعشرين ساعة ومن لم يصم وجب عليه القتل .

ومما يذكر أن البيرونى كان من أعظم العلماء خبرة بطقوس اليهود. وصيغة فاعولاء من الصيغ النادرة فى العربية لا نكاد نجد منها إلا تاسوعاء وهو التاسع من المحرم

والضاروراء: الضراء، والساروراء: السراء والدالولاء : الدلال .

ولم أجد هذا الإحصاء فى مرجع إلا فى لسان العرب فى مادة(عشر) عن ابن بزرج، وزاد عليه ابن الأعرابى : الخابوراء: موضع . ولم يتعرض ابن خالويه لهذه القضية، وعقد لها السيوطى فى المزهر ٢ : ٦٩ فصلا زاد فيه عن ابن خالويه : ساموعاء، قال : « وهو اللحم فى التوراة. ولم أجد هذا فى كتابه ولعله من كتاب آخر» .

سنة الفقهاء :

قال أبو جعفر الطبرى فى تاريخ سنة ٩٤ من الهجرة « وكان يقال لهذه السنة : سنة الفقهاء ، مات فيها عامة فقهاء أهل المدينة ، مات فى أولها على بن الحسين عليه السلام ، ثم عروة بن الزبير ، ثم سعيد ابن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام » .

واقتصر الطبرى على هذا . ولم يذكر على ابن الحسين بوصفه فقيها ، بل ذكر وفاته فقط .

وقد وجدت الصفدى فى نكت الهميان ١٣١، يعين هؤلاء الفقهاء فى دقة وتفصيل وذلك فى ترجمته لأبى بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام بن المغيرة ؛ إذ يقول : « وكان من سادات التابعين ، ويسمى : راهب قريش » . ويذكر أنه توفى سنة ٩٤ للهجرة ، وهذه السنة تسمى سنة الفقهاء ؛ لأنه مات فيها جماعة منهم . وهؤلاء الفقهاء السبعة كانوا بالمدينة فى عصر واحد ، وعنهم انتشر العلم والفتيا فى الدنيا . . . وقد جمعهم بعض الشعراء فى بيتين :

ألا كل من لا يقتدى بأئمة
فقسمته ضيزى عن الحق خارجه
فخذهم : عبيد الله ، عروة ، قاسم
سعيد ، سليمان ، أبوبكر ، خارجة

وإنما قيل لهم الفقهاء السبعة؛ لأن الفتوى بعد الصحابة صارت إليهم وشهروا بها ؛ وكان فى عصرهم جماعة من العلماء مثل سالم بن عبد الله بن عمر ، ولكن الفتوى لم تكن إلا لهؤلاء السبعة .

وأقول: أما عبيدالله فى هذا الشعر فهو عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلى وكان، مع زهده وورعه، شاعرا مجيدا . وقال ابن عبدالبر : كان أحد الفقهاء العشرة، ثم السبعة الذين تدور عليهم الفتوى .

وأما عروة فهو عروة بن الزبير بن العوام حفيد أبى بكر ، أمه أسماء بنت أبى بكر ، وهو أخو عبدالله بن الزبير ومصعب.

وأما قاسم فهو القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق . وكان ابن سيرين يأمر من يحج أن ينظر إلى هدى القاسم فيقتدى به . وكان صموتا شديد الصمت ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز قال أهل المدينة : اليوم

تنطق العذراء ! يعنونه بذلك : قال ابن عبد البر فى بهجة المجالس ٢ : ٦٤ : «كان القاسم بن محمد يلبس الخز ، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف ، وكانا يتجالسان فى المجلس ويتحدثان الدهر ، لا ينكر واحد منهما لباس صاحبه . . :

وأما سعيد فهو سعيد بن المسيب المخزومى ، وأبوه المسيب من أهل بيعة الرضوان . وفيه يقول الإمام أحمد : « أفضل التابعين سعيد بن المسيب » ويقول ابن حبان : « ما نودى بالصلاة من أربعين سنة إلا وسعيد فى المسجد » .

وأما سليمان فهو سليمان بن يسار الهلالى ، مولى أم المؤمنين ميمونة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان سعيد بن المسيب يقول للسائل : اذهب إلى سليمان بن يسار فإنه أعلم من بقى اليوم .

وأما أبو بكر فهو أبو بكر بن عبد الرحمن الذى أسلفت شيئا من ترجمته فى أول هذا الفصل .

أما سابع هذه الحلبة فهو خارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى ، وأبوه أبو خارجة زيد بن ثابت كاتب الوحى ، وبه كان يكنى . قال المصعب الزبيرى فى كتاب نسب قريش : « كان خارجة وطلحة يقسمان المواريث ويكتبان الوثائق ، وينتهى الناس إلى قولهما » .

فهذا تاريخ رجال الحقبة الأولى من أحقاب التشريع الإسلامى فى عنفوانه .

وكانت السنة الرابعة بعد التسعين من الهجرة خاتمة لحياتهم الحافلة بالفتوى والتشريع .

سم الخياط :

لم يختلف المفسرون واللغويون فى تفسير هاتين الكلمتين . فالسم هو الثقب . والخياط هى الإبرة التى يخاط بها . ولكنهم ذهبوا مذاهب شتى فى تأويل قوله تعالى : «حتى يلج الجمل» ويشتد خلافهم حين تختلف القراءات بين «الجَمَل» و «الجُمَّل» بالضم وتشديد الميم ، و «الجُمَل» بضم ففتح مع التخفيف ، و « الجُمْل » بضم فسكون و « الجَمْل » بفتح فسكون . وقد تكفل أبوحيان بنسبة هذه القراءات الخمس فى الآية الأربعين من سورة الأعراف :

وقد اتفق السبعة على القراءة الأولى «الجَمَل» وفسّر بهذا الحيوان المعروف زوج الناقة ، كما فسرها ابن مسعود تحكما منه بالسائل الذى لم يعرف معنى الجمل فى القرآن؛ واختلفوا فى «الجُمَّل» : أهو حبل السفينة الغليظ ، أم هو الحبل الذى يصعد به فى النخل . أما سائر القراءات فلا يخرج تفسيرها كذلك عن الحبل الغليظ .

فواضح أن أعلى القراءات هذه هى قراءة «الجَمَل» بالتحريك. وقد وجدت نحو هذا فى إنجيل متى فى الفقرتين ٢٣ ، ٢٤ من الإصحاح التاسع عشر : «فقال يسوع لتلاميذه : الحق أقول لكم ، إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات . وأقول لكم

أيضا : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » .

الجمل عند اليهود :

جاء فى غزوة بنى قريظة من السيرة ، أن سلمى بنت قيس ، وكانت إحدى خالات الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد صلّت معه القبلتين ، وبايعته بيعة النساء ، سألته رفاعة بنى سموءل القرُظىّ . وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أمر أن يُقتل من بنى قريظة كل من أنبت منهم وكان رفاعة هذا قد بلغ ، فلاذ بهـا ، وكان يعرفهم قبل ذلك ، فقالت : يانبى الله ، بأبى أنت وأمى ، هب لى رفاعة ، فإنه قد زعم أنه سيصلى ويأكل لحم الجمل — وهى عبارة تحتاج إلى وقفة وتفسير — قال ؛ أى الراوى : فوهبه لها فاستحيته .

وهذه رؤية صادقة لحال من كان يدخل الإسلام من عرب اليهود ، فإنه يجد الإسلام قد وسّع له مجال الطعام فى مطعم هو أشيع المآكل عند العرب وأقربُها إلى أذواقهم ، وهو لحوم الإبل وشحومها .

وقد نص القرآن الكريم على ما كان من تحريم كثير من اللحوم والشحوم على بنى إسرائيل «وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » . يقول أهل اللغة والمفسرون إن المراد بذوات الظفر يعم ذوات المناسم من الإبل والنعام ، لأنها كالأظفار لها ، وكذلك ما ليس بذى أصابع منفرجة كالبط والأوزّ .

فى مجال التأليف :

بسط الإسلام نوره على دنيا الثقافة بسطا عريضا ، فكان نشاط التأليف عبقريا من حيث العدد والكم ، ومن حيث النوعُ والكيف والكيف ، كما يقولون . وأمامنا أمثلة عظيمة من نشاط الجاحظ وأبى عبيدة ، والمدائنى ، وابن سينا ، والصفدى ، وابن منظور . ولعل من ألمع المؤلفين فى العصور القريبة العلامة ابن حجر ، وجلال الدين السيوطى (٨٤٩ — ٩١١) الذى يقول : شرعت فى التصنيف فى سنة ست وستين وثمانمائة — أى فى السابعة عشرة من عمره — وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه » وقد استمر السيوطى بعد مقاله هذا يكتب ويؤلف . وقد عدّ له بروكلمان ٤١٥ مصنفا ما بين مطبوع ومخطوط والعلامة فلوجل ٥٦٠ مصنفا ، وذكر له الأستاذ جميل العظم ٥٧٦ مصنفا بين كتب ورسائل ومقامات (عقود الجوهر فى تراجم من لهم خمسون تصنيفا فمائة فأكثر) .

وفى تاريخ ابن إياس ٣ ب ٣٣ أن مؤلفاته بلغت ستمائة مؤلف . وكان السيوطى قد برع فى علوم كثيرة . وكان علم الحساب والمنطق فى موقع منه يحشاه ويتهيبه . يقول

« وأما علم الحساب فهو أعسر شئ علىّ وأبعده عن ذهنى ، وإذا نظرت فى مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله » .

ويقول أيضا : « وقد كنت فى مبادئ الطلب قرأت شيئا فى علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهتة فى قلبى ، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه ، فتركته لذلك ، فعوضنى الله تعالى عنه علم الحديث الذى هو أشرف العلوم » .

ويروى لنا السيوطى فى ترجمة إسماعيل ابن أبى بكر اليمنى ، أنه كان غاية فى الفهم والذكاء ، صنف كتابا سماه «عنوان الشرف» مجموعة فى الفقه ، وفيه أربعة علوم غيره تخرج من رموزه فى المتن عجيب الوضع ، وهو : نحو ، وتاريخ ، وعروض ، وقوافى فى خمس كراريس فى كامل الشامى » .

ثم يقول السيوطى عن نفسه : «وقد عملت كتابا على هذا النمط فى كراسة واحدة فى يوم واحد وأنا بمكة المشرفة ، وسميّته : النفحة المسكية والمنحة المكيّة ، جعلته مجموعة فى النحو ، وفيه عروض ومعان ، وبديع ، وتاريخ . ولاريب أن هذا عمل عبقرى يفخر به التأليف العربى .

لسان العرب :

قد يظن أن هذه التسمية تسمية فريدة بين المعاجم ، أو أن أول من أطلق هذه التسمية على كتاب هو جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقى المصرى . ولكنى عثرت على نص فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (ص ٤٤٠) يذكر أن لابن سينا الحسين بن عبد الله كتابا سماه لسان العرب فى عشرة مجلدات .

ومن المعروف أنه كان للرئيس ابن سينا مشاركات شتى فى علوم العربية ، منها كتاب أسباب حدوث الحروف ، وكتاب الملح فى النحو .

ويذكر القفطى فى ترجمة أبى منصور الجبان — معاصر ابن سينا ومنافسه فى الدولة البويهية — أن أبا منصور هذا شرع فى تصنيف كتاب فى اللغة أحسن ترتيبه وتبويبه ، واستوفى فيه اللغة غاية إمكانه ، وجاء كبيراً وسماه : «لسان العرب» ومات قبل إخراجه من المسودة ، فبقى على حاله . فهذا لسان عرب ثالث .

ولعل السر فى إقبال ابن سينا على التأليف اللغوى ، ما كان من هزيمته أمام أبى منصور الجبان فى مجلس علاء الدولة بن فخر الدولة ابن بويه . يقول القفطى فى إنباه الرواة (٤ : ١٧٠) : « وبعد انفصاله من المجلس — يعنى الرئيس ابن سينا — نظر فى اللغة وتبحّر فيها ، وعمل رسائل أودعها به نوعا متوافرا من اللغة » .

تهذيب الحيوان :

من بين ما صنعت فى مؤلفاتى : تهذيب سيرة ابن هشام ، وتهذيب إحياء علوم الدين للغزالى ، وتهذيب كتاب الحيوان

وقد ظن بعض الإخوة من الأدباء أنى قد انفردت بهذا العمل فى كتاب الحيوان، وراقه صنيعى ، وكتب إلىّ مثنيا . والحق أنه قد سبقنى إلى تهذيب الحيوان عالمان جليلان من علماء القرن السابع ، أما أحدهما فهو شاعرنا المصرى هبة الله بن جعفر بن محمد سناء الملك ، المعروف بابن سناء الملك (٦٠٨) قال ياقوت فى ترجمته : وصنف كتاب روح الحيوان ، لخص فيه كتاب الحيوان للجاحظ . ويقول ابن خلكان (٢ : ١٨٨) بعده فى ترجمته له أيضا : واختصر كتاب الحيوان للجاحظ ، وسمى المختصر : روح الحيوان . وهى تسمية لطيفة .

كما يشير صاحب كشف الظنون إلى أن للموفق البغدادى اختصاراً آخر للحيوان . والموفق هذا هو عبد اللطيف بن يوسف ابن محمد ، المعروف بابن نقطة ، المتوفى سنة ٦٢٩، وكلا المختصرين قد ذهب فى طيات التاريخ، فلم نر لأحدهما أثرا .

مقامات الحريرى :

جاء فى تاج العروس (زوك) : وزاكان مدينة بالعجم ، منها عبيد الزاكانى صاحب المقامات التى ضاهى بها مقامات الحريرى فأغرب وأعجب ، وهى بالفارسية ، رأيتها فى خزانة الأمير صرغتمش .

أجزاء القرآن الكريم :

يروى اليعقوبى فى تاريخه (٢ : ١١٣) أن مصحف على بن أبى طالب كان فى سبعة أجزاء : الجزء الأول : البقرة وسورة يوسف، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، وحم السجدة، والذاريات ، وهل أتى على الإنسان ، وألم تنزيل السجدة والنازعات ، وإذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت ، وسبح اسم ربك الأعلى ، ولم يكن، وهو جزء البقرة ، وعدد آياته ثمانمائة وست وثمانون آية ، وهو ست عشرة سورة .

وعلى هذا النمط وتعداد الآى الست والثمانين والثمانمائة يكون جزء آل عمران (١٥ سورة) وجزء النساء (١٧ سورة) وجزء المائدة (١٥ سورة) وجزء الأنعام (١٦ سورة) والأعراف (١٦ سورة) والأنفال (١٦ سورة) .

وقد وجدت فى مطالعاتى وفيما أحييت من التراث أن أول محاولة لتجزئة القرآن كانت تجزئة حسابية عددية لا تجزئة مصحفية كما هو المألوف فى المصحف الكريم المتداول بيننا اليوم ، وهى المحاولة التى رواها أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب فى مجالسه (١ : ٦٣) التى حققتها منذ خمسة وثلاثين عاما يعزوها إلى القارئ المكى حميد الأعرج المتوفى سنة ١٣٠ ، أنه حسب نصفى القرآن بعدد الحروف ، ثم ثلاثة أثلاثه وأربعة أرباعه إلى أن انتهى إلى عشرة أعشاره ، وبلغ من دقته أنه كان يجزئ الكلمة الواحدة فى التعداد فيجعل على سبيل المثال (مأ) نهاية للثمن الأول من المصحف و(واهم) بدءاً للثمن الثانى ، وهى كلمة (مأواهم) . ومن

البديهى أن هذا التقسيم إنما هو ضرب من العناية والدراسة لا دخل له بتجزئة الكتاب الكريم . ومهما يكن فإنه يدل على عبقرية حسابية .

أما أقدم تقسيم مصحفى منصوص عليه فهو التقسيم الرباعى المنصوص عليه فى البرهان للزركشى (١ : ٢٤٤) بناء على تأويل الحديث عن واثلة بن الأسقع عن النبى —صلى الله عليه وسلم— قال : « أعطيت السبع الطُّوَل مكان التوراة ، وأعطيت المئين مكان الإنجيل ، وأعطيت المثانى مكان الزبور وفُضّلت بالمفصّل » .

فالسبع الطول أولها البقرة وآخرها براءة ، لأنهم كانوا يعدون الأنفال وبراءة — أى التوبة — سورة واحدة . والمئون ماولى السبع الطول ؛ لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقارب . والمثانى ماولى المئين لأن الأنباء والقصص تثنى فيها بصفة خاصة . والمفصل : ماولى المثانى من قصار السور ، سمى مفصلا لكثرة الفصل بين السور بالبسملة .

ونحو هذا التقسيم مع شئ من التفصيل فى الإتقان للسيوطى (١ : ١٧٩ — ١٨٣) .

ولعل أول إشارة لتحزيب المصحف وتجزئته إلى ثلاثين ، ماورد فى البرهان للزركشى (٧٤٥ — ٧٩٤) ١ : ٢٥٠ إذ يقول :

« وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما فى الربعات بالمدارس وغيرها » .

ولعل لفظ (الربعة) الوارد فى هذا النص يعنى به المجموعة التى تربع ؛ أى تحمل وترفع .

وقد شاعت أيضا كلمة (الختمة) ويذكر المرتضى الزبيدى فى مستدرك تاج العروس أن الختمة بالفتح ، ويُكسر : المصحف ، عامية . ووصفه اللفظة بأنها عامية ليس كما ينبغى ، والأولى أن يقال إنها مولدة صحيحة ؛ لأن القارئ يختمها بإكمال تلاوته لها جميعها فهى تسمية باسم المرة .

ألفية ابن مالك :

من المعروف أن عدد الأبيات التى نظم فيها ابن مالك ألفيته هو الألف . وقد بدا هذا واضحا فى كل مخطوطاتها وطبعاتها . لكنى وجدت الصبان فى حاشيته على شرح الأشمونى (٤ : ٢١٧) فى باب الوقف يقول ، تعليقا على بيت ابن مالك :

ووصلها بغير تحريك بنا
أديمَ شذّ فى المُدام استحسنا

قال : يوجد فى بعض النسخ قبل هذا البيت :

ووصلَ ذى الهاء أجز بكل ما
حرّك تحريك بناءٍ لزما

من تاريخ الخط العربى :

يقولون : إن أول من جوّد المصاحف خالد بن أبى الهيّاج ، وكان منقطعاً إلى الوليد ابن عبد الملك ، يكتب له المصاحف ، وكذلك

أخبار العرب وأشعارها . ومن بعد خالد عرف مالك بن دينار السامى، مولى سامة ابن لؤى المتوفى سنة ١٣١، وتعاقب التجويد بعد ذلك حتى بلغ غايته على رأس الثلثمائة على يد أبى على محمد بن مقلة ، وابنه عبدالله ابن مقلة . وأبو على هو أول من هندس الحروف وقدر مقاييسها وأبعادها بالنقط وضبطها فى إحكام صادق ، وسمى خطه بالخط المنسوب ، وفيه يقول أبو عبيد البكرى صاحب المعجم :

خط ابن مقلة من أرعاهُ مقلته
ودّت جوارحه لو أصبحت مقلا

وفى أوائل القرن الخامس ظهر أبو الحسن على بن هلال البغدادى، المعروف بابن البوّاب المتوفى سنة(٤١٣)وقد نوّه أبو العلاء المعرى الضرير بابن هلال هذا فى إحدى بغدادياته؛إذ يقول فى نعت الهلال :

ولاح هلال مثلُ نون أجادها
بجارى النضار الكاتب ابن هلال

وجارى النضار : ماء الذهب .

ويقول ابن خلكان : وسألنى بعض الفقهاء بمدينة حلب عن قول بعض المتأخرين من جملة أبيات فى صفة كتاب :

كتاب كوشى الروض خطت سطوره
يد ابن هلال عن فم ابن هلال

فقلت له : هذا يقول : إن خطه فى الحسن مثل خط ابن البواب ، وفى بلاغة ألفاظه مثل رسائل الصابى ؛ لأنه ابن هلال أيضا .

والصابى الذى يشير إليه ابن خلكان هو المترسل أبو إسحاق بن إبراهيم بن هلال، المتوفى قبيل سنة ٣٨٠ .

وبذلك نستطيع أن نضيف إلى معاجم المثنى والمبنّى « ابنا هلال ». . .

وممن عرف بجودة الخط بعد ابن هلال، ياقوت بن عبدالله الرومى الحموى، صاحب المعجمين ، المتوفى سنة ٦٢٦ ثم ياقوت بن عبد الله الرومى المستعصمى مولى المستعصم ، المتوفى سنة ٦٨٩

الثقة بالتواريخ المعاصرة :

من الخطأ الفاحش الذليل أن يكلف مؤرخ معاصر تكليفا ديوانيا أن يكتب تاريخا بإيعاز من ولى الأمر مهما سمت منزلته وعرف بالنزاهة ونقاء الجيب وسلامة النفس ؛ إذ ليس من طبيعة البشر إلا أن يجاملوا معاصريهم ومن هم فوقهم مهما تصنعوا من عدالة وإنصاف. فهذا الأسلوب مضيعة للتاريخ وبهتان عظيم .

ومن نماذج هذا الخطأ فى القديم ما أمر به عضد الدولة بن بويه الديلمى أبا إسحاق الصابى السابق الذكر ، أن يصنع له كتابا فى أخبار الدولة الديلمية ، فعمل الصابى هذا الكتاب وسماه «الكتاب التاجى» فماذا حدث بعد ذلك؟ قيل لعضد الدولة هذا :

إن صديقا للصابي دخل عليه فرآه فى شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبييض، فسأله عما يعمل فقال : أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها !

يقول ابن خلكان راوى الخبر : «فحركت ساكنه وهيجت حقده . ولم يزل مبعداً فى أيامه » .

وكان عضد الدولة قبل هذا التكليف قد أرهبه واعتقله ، وعزم على إلقائه تحت أيدى الفيلة.فشفعوا فيه ، ثم أطلقه ورسم له أن يكتب هذا التاريخ الملفق المنمق .

القسامة :

جاء فى اللسان (قسم ٣٨٠): القُسامة بالضم : ما يأخذه القسام من رأس المال عن أجرته لنفسه من رأس المال، كما يأخذ السماسرة رسما مرسوما لا أجرا معلوما ، كتواضعهم أن يأخذوا من كل ألف شيئا معينا .. وذلك حرام :

ثم يقول :قال الخطابى (وهوأبوسليمان حمد أو أحمد بن إبراهيم بن الخطاب المتوفى سنة ٣٨٨ ، وكان فقيها محدثا) قال : ليس فى هذا تحريم ،إذا أخذ القسام أجرته بإذن المقسوم لهم ، وإنما هو — أى التحريم فيمن ولى أمر قوم، فإذا قسم بين أصحابه شيئا، أمسك منه لنفسه نصيبا يستأثر به عليهم.

وفى هذا النص الذى أورده صاحب اللسان ما يكون ضميمة وسنداً لما يجرى من خلاف حول المعاملات المصرفية الحديثة .

فى مجال النحو واللغة :

الدال اليابسة :

من أغرب ما وجدته فى تعبيرات الضبط اللغـــوى المعجمى ، ما جاء فى كتاب : « تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه » من نوادر المخطوطات (١ : ١٠٦) يقول مؤلفة الفيروزبادى فى ضبط جحدم : بفتح الجيم وسكون الحاء المهملة وفتح الدال اليابسة ، بدلا من قوله : «الدال المهملة»، كما هو المألوف عند أصحاب المعاجم .

(ترجمة الجيم فى الأعلام والكلمات الأعجمية) يختلف العرب المعاصرون فى ترجمة ما أوله جيم غير مطلشة من الأعلام والكلمات الأعجمية، فأهل مصر يجعلونها جيما قاهرية ، وكثير من العواصم العربية يجعلها غينا أو كافا .

جاء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (١٢٩): «ويقول أبو بكر الرازى فى كتاب الحاوى : إنه ينطلق — أى يطرد — فى اللغة اليونانية أن ينطق بالجيم غينا وكافاً ، فيقال—مثلا—جالينوس وغالينوس وكالينوس، وكل ذلك جائز » .

الاعراب :

كما أسرف قوم فى إهمال الإعراب جهلا أو تخلصاً من الأخطاء ، نجد أن قوماً من العرب قد أسرفوا على أنفسهم

فأجروا الإعراب فى الكلمات كلها وصلا ووقفاً .

وجدت فى كتاب سيبويه (٤ : ١٦٧ هارون) « وزعم أبو الخطاب أن أزد السراة يقولون : هذا زيدو ، وهذا عمرُو ، ومررت بزيدى وعمرى. جعلوه قياساً واحدا، فأثبتوا الياء والواو كما أثبتوا الألف .

تنوين الموصوف بابن :

من المعروف عند علماء الرسم أن تنقص ألف ابن وابنة إذا وقع أحدهما مفرداً نعتاً بين علمين مباشرين أولهما غير منون وثانيهما مشهور بالأبوة ، ولوادّعاءً بشرط ألا يكون فى أول سطر .

وهذا هو الجارى فى مألوف الرسم أوالإملاء كما يقولون ، ونص عليه علماء النحو أيضا، لكن هناك خلافا فى نحو: أبوبكر بن أبى قحافة ، وعبد الله بن أم مكتوم ؛ أى إذا وقع ما قبل الابن مضافا أو وقع ما بعد الابن مضافا .

يقول الصبان — وهو نص نادر —: «وجزم الراعى بوجوب تنوين المضاف إليه ، وكتابة ألف ابن إذا كان الموصوف بابن مضافا ، كما فى قام أبو محمد ابن زيد . واختاره الصفدى فى تاريخه بعد نقل الخلاف واختاره أيضا المصنف — أى ابن مالك إذا كان المضاف إليه ابن مضافا ؛ أى فى نحو رأيت محمداً ابن زين العابدين » .

فهذان النموذجان عندهما يكتبان ويقرءان بتنوين ما قبل الابن ، وبإثبات ألف ابن فى الكتابة كذلك .

والراعى الذى ذكره الصبان هو محمد ابن محمد بن محمد بن إسماعيل الأندلسى، نزيل القاهرة ، المتوفى سنة ٨٥٣ ، له شرح على الألفية والآجرومية .

واحد عشر
والواحد والعشرون

الفصيح فيهما أن يقال : أحد عشر والحادى والعشرون لكنهما وجهان جائزان .

وفى التصريح (٢ : ٢٧٧) : « وحكى الكسائى عن بعض العرب واحِدَ عشر على الأصل ، فلم يلتزم القلب كل العرب » .

وقد علق الأشمونى على هذا بقوله : «وأما ما حكاه الكسائى من قول بعضهم : واحِدَ عشر فشاذ نبه به على الأصل المرفوض» .

ثم يقول : «قال فى شرح الكافية : ولا يستعمل هذا القلب فى واحد إلا فى تنبيف ؛ أى مع عشرة أو مع « عشرين » وأخواته .

أى أن :

يخطئ كثير من الكاتبين والمتكلمين فى استعمال أنّ المفتوحة الهمزة بعد أى التفسيرية ، والصواب « أى إن » بالكسر ؛ لأنها تكون تفسيراً لكلام سابق ، أى لجملة لا لكلمة ، وإذن فإن الواقعة بعدها هى بدء الكلام فوجب كسر همزتها .

ومثاله ما أسعفنى به ابن منظور حينما أنشد بيت أمية بن أبى الصلت فى مادة (عول) :

سلع ماومثله عشر ما عائل ماوعالت البيقورا

وفسره فقال : « أى إن السنة الجدبة أثقلت البقر بما حملت من السلع والعشر » . ولو أخطأ لقال : أى أن السنة الجدية . وعلى هذا إذا فسرنا قول الشاعر :

وترمينى بالطرف أى أنت مذنب

وتقلينى لكنّ إياك لا أقلى

قلنا : «أى إنك مذنب » لا «أى أنك مذنب ».

أما أى المفسرة للمفرد فلا تاتى بعدها . إنّ مطلقا، بل نقول : هذا عسجد ، أى ذهب ، وغضنفر ، أى أسد ، وما بعد أى عطف بيان أو بدل عند البصريين ، وعطف نسق عند الكوفيين .

الطريحة :

كلمة مولدة قديما ، تستعمل بمعنى الكمية التى يجب عملها مطلقاً ، من نسج أو بناء أو طلاء ، أو تصنيع ، أو كتابة أو تأليف. وجاء فى ترجمة عبد الملك بن سراج النحوى من كتاب «بغية الوعاة» ٣١٢ أنه طال عمره مع البحث و التنقير ، وكان يقول : «طريحتى فى كل يوم سبعون ورقة». واشتقاقها من الطرح ، كأن الشىء يطرح أمامه ليعمله ، أو كأنه طرحه من وراء ظهره بعد أن كان مثقلا به. وعبد الملك هذا ممن توفى سنة (٤٨٩)

الحلزون :

كلمة عربية أصيلة ينسب إليها الشكل الحلزونى المعروف. وهى أحد ما جاء على وزن فعلول كالزرجون للخمر والكرْم والقربوس لحنو السرج ، والقرقوس للقاع الأملس الغليظ . وفى اللسان: « الأصمعى : حلزون : دابة تكون فى الرمث » . وفى القاموس : «دابة تكون فى الرمث أو من جنس الأصناف » ، ويفسرّه الدميرى فى «حياة الحيوان» بأنه دود فى جوف أنبوبة حجرية يوجد فى سواحل البحار وشطوط الأنهار . وهذه الدابة تخرج بنصف بدنها من جوف تلك الأنبوبة الصدفية ، وتمشى بمنة ويسيرة تطلب مادة تغتذى بها ، فإذا أحسّت بلين ورطوبة انبسطت إليها ، وإذا أحسّت بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف الأنبوبة الصدفية حذارا من المؤذى لجسمها ، وإذا انسابت جرّت معها بيتها .

وفى معجم المعلوف ٢٣١ : «والحلزون عند عامة أهل الشام: الصغير منه يسمونه فى العراق زلنطح وسلنطح . ويقول الصبيان : سلنطح ياسلنطح ، طلع قرونك وانطح .

قلت : ولعل هذا تأصيل لما تقوله عامة المصريين للرجل الجبار المرهوب الجانب — لعدم مبالاته — «ظلنطحجى » يعنون أنه إذا استثير صارع قرنه برأسه لا يبالى ما صنع . و«جى» هى علامة النسبة فى التركية .

من غرائب التصحيف :

والتصحيف آفة من آفات العلماء لا يكاد عالم فاضل يخلو منها ، مهما أوتى من علم . جاء في شواهد الأشموني قول ذي الرمة :

ويسقط بينها المرئى لغوا
كما ألغيت في الدية الحُوارا

والبيت بهذه الصورة السليمة موثّق مفسّر في ديوان ذي الرمة ، ويقول الصبان ، وهو نحوي جليل في التعليق عليه ٤ : ١٩٢ : قال البعض : ليس بنظم ، وانظر ماضبطه وما معناه ، فإني لم أقف عليه ، لكن وجد في بعض النسخ على كونه نظما من بحر الوافر :

ويسقط منهما المرئى لَقَوْا
كماء العِنْب في الدُّبَة الحَوَاء

بضمير التثنية في «منهما» وضبط «لقوا» كغزو ، وسكون نون العِنْب وتخفيف باء الدُّبَة وواو الحواء .

وهكذا أفلت الزمام من عالم جليل ، ولكن لم يفلت زماننا في الحكم له بالفضل فلكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة .

عبد السلام هارون
عضـــو المجمع